الإبداع والاتباع في تحريم وتجريم "الخمر والمسكر" سوس النخر الاقتصادي

محمد ياسر الدباغ
مدقق لغوي

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، والحمدُ للهِ واهبِ الإنسانِ الفطرةَ والقلبَ والعقلَ، وجاعلِ الحواسِّ منافذَ الإدراكِ وميزانَ التفكيرِ وُصولاً للسلامةِ والسرورِ والسعادةِ في الدُّنيا والآخرَةِ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا مُحمَّدٍ – سيِّدِ العُقلاءِ، وإمامِ العُلماءِ، ومُربِّي الحُكماءِ– وعلى آلهِ النُّبلاءِ وصَحبِه النُّجباءِ وتابعيهِم الألبَّاءِ وعَلينا مَعهُم برَحمَتِكَ يا أرحمَ الرَّاحمينَ، وبَعدُ:

بادئَ ذي بَدءٍ لا بُدَّ من تعريف (الخَمرِ والغَولِ والسَّكَرِ) لغةً واصطِلاحاً وإشارةً.

الخَمْرُ:

خَمِرَ اشتكى من شُرب الخَمر، وخَمِرَ المكانُ كَثُرُ فيه شُرْبُ الخَمرِ، وخامَرَ به استترَ، و"الخَمْرُ" ما أسكرَ من عصيرِ العنَبِ، وسمِّيتْ بذلك لأنّها تُغطِّي العقلَ، قال ابنُ سيدَه: "إنّ الخَمرَ حقيقةً إنّما هيَ للعنَبِ، وغَيرُها من المُسكِرات يُسمَّى خَمراً مَجازاً" . والخُمرَةُ: ما خالطَ الإنسانَ من سُكْرِ الخَمْرِ. قال رَسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وكُلُّ خَمْرٍ حَرامٌ" وقد نقلَ الإمامُ ابنُ عبدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى قولَ الصَّحابةِ: "أنَّ الخَمْرَ كُلُّ مُسْكِرٍ؛ سواءٌ كانتْ من العنَبِ أم من غَيرِه وهو قولُ أهلِ المدينةِ وأهلِ الحِجازِ وأهلِ الحديثِ كُلِّهم.

والخِمْرُ: الحِقْدُ، والخِمْرَةُ: أخلاطٌ من الطِّيبِ تَطلي به المرأةُ وجهَها لِيَحْسُنَ لَونُها، وَجَاءَ في المَثلِ العربيِّ (خَمْرُ أبي الرَّوقاءِ لا تُسْكِرُ) يُضْرَبُ للغنيِّ الذي لا فَضْلَ لهُ على أحدٍ ولا إحسانَ.

واصطِلاحاً:

عند الحنفية: هيَ النِّيءُّ من ماءِ العنَبِ إذا غلا واشتَدَّ وقَذَفَ بالزَّبَدِ؛ أيّ: رَماه وأزالَه فانكشَفَ عنْه وسكَنَ.

وعند المالكية: الخَمرُ: ما اتُّخِذَ من عَصيرِ العنَبِ ودَخَلَتْهُ الشِّدَّةُ المُطْرِبَةُ، والطَّرَبُ: لُغَةً: خِفَّةٌ تعتري عقلَ الإنسانِ من (سُكْرٍ، أو سُرورٍ، أو سَماعٍ).. وعند الشافعية: الخَمرُ حقيقةً ما يُتَّخَذُ من العنَبِ مَجازٌ في غَيرِه كذلك عند الحنابلَة والظاهرية،

وعند الجعفرية: عصيرُ العنَبِ الذي اشتدَّ وأسكرَ، وعُصيرُ (العنَبِ والتَّمْرِ أو الزبيبِ أو الحشيشِ) إذا غَلا واشتدَّ والمُسْكِرُ من الشرابِ. والخُمْرَةُ: ما خالطَ الإنسانَ من سُكْرِ الخَمْرِ، والخُمَارُ – بالخاءِ لا بالحاءِ –: بَقيَّةُ السُّكْرِ.

السَّكَرُ: سَكَرَ سُكُوراً وسَكراً: فَتَرَ وسَكَنَ. سَكَرَ فُلانٌ من الشَّراب سَكْراً وسَكَراً وسُكُراً وسُكْراً وسَكَرانا: غاب عقلُه وإدراكُه فهوَ سَكِرٌ وسَكْرانُ وهيَ سَكْرانَةٌ وسَكْرى، وأسْكَرَهُ الشَّرابُ: أزالَ عقلَه، وسَكَّره الشرابُ: بالغَ في إسكارِه.

السُّكْرُ غيبوبةُ العَقلِ واختلاطُه من الشراب المُسْكِر، وقَد يعتري الإنسانَ من الغَضَب أو العِشْق أو القوَّة أو الظفَر.

وعند الحنفية: سُرورٌ يُزيلُ العقلَ فلا يَعرِفُ به الأرضَ من السماء، وهذا القول يُحمَلُ على السُّكْرِ المُوجِبِ للحدِّ، وخَبَلٌ في العقلِ يُؤدِّي إلى هَذيانٍ في الكلام،

وعند الشافعية والحنابلة والظاهرية والزيدية مثلَ القول الثاني عند الحنفية.

والسُّكْرُ: كُلُّ ما يُسْكِرُ من خَمْرٍ وشَرابٍ؛ وقد وَرَدَ في الحديثِ النبويِّ الشريف: عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما قال لَمَّا حُرِّمت الخمرُ مشَى أصحابُ رسولِ اللهِ بعضُهم إلى بعضٍ وقالوا حُرِّمت الخمرُ وجُعلت عدلاً للشِّرك (الترغيب والترهيب) والسَّكرانُ ضدُّ الصَّاحي وجَمعُه سَكْرى سَكارى وسُكارى وهي سَكْرَى وسَكرانَة.

وعند الحنفية: (هو الذي لا يُفَرِّقُ بينَ الرَّجُلِ والمرأةِ والسماءِ والأرضِ، ومَن يَختلِطُ بكلامه) وعليه الفتوى.

المُسْكِرُ: اسمُ فاعلٍ من أسكَرَ الشرابُ فهوَ مُسكِرٌ إذا جَعَلَ شارِبَه سَكرانَ، أو كانتْ فيه قوَّةٌ تفعلُ ذلك.

وعند الظاهرية: هو كُلُّ شرابٍ كان الإكثارُ منه يُسكِرُ أحداً من الناسِ؛ فذلكَ الشرابُ مُسكِرٌ حرامٌ؛ سواءٌ سَكِرَ مَن شَرِبَه أم لم يَسْكَرْ، طُبِخَ أمْ لمْ يُطبَخْ، ذهبَ بالطبخِ أكثرُه أمْ لمْ يذهبْ.

وقد قيلَ: إنّ السُّكْرَ جُنونٌ والمجنونُ يَخافُ من السَّكران؛ لأنَّ المجنونَ سُكْرُهُ باطنٌ والسُّكْرُ جُنونُه ظاهرٌ والويلُ لِمَنْ يبقى في سُكْرِ الغفلةِ دائماً. قال الشاعرُ:

مَنْ أسْكَرَتْهُ الخَمْرُ في سُرْعَةٍ فمَا عليه أنْ صَحا مِنْ خَجَلِ

الغَولُ: ما يَنشأُ عن الخَمْرِ من صُداعٍ وسُكْرٍ، وفي التنزيلِ العزيزِ: لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿ ٤٧ ﴾ الصافات، والغَوْلُ بُعْدُ المَفازةِ – الصَّحراءِ –؛ لأنّه يَغتالُ مَن يَمُرُّ به لبُعدِها ومَشقَّتِها, ويُقالُ غالَتْه الخَمْرُ: إذا شَرِبَها فَذَهبَتْ بعَقْلِه أو بصحَّةِ بَدَنِه، وغَالَتْه الأرضُ: هلكَ فيها، وتغوَّلَ الأمرُ تناكرَ وتشابَه وأشكلَ، وتَغوَّلت المرأةُ: تشبَّهَتْ بالغُولِ في تلوُّنِها.

إشارة: (الخَمْرُ: خ: خُبْثُ النَّفْسِ، خَبَلُ العقلِ، خَلْطُ الأمورِ، خَبْطَ عشواءٍ، خِزْيُ الدُّنيا، خِسَّةُ الطَّبْعِ، خَسارةُ المالِ، خيانةُ الأمانةِ، خِداعِ الأُمَّةِ، خَيبةُ العُمُرِ، م: مُسْكِرٌ، مَزلَقَةٌ، مَزَلَّةٌ، مَهْزَلَةٌ، مَهْلَكَةٌ، ر: رِكْسٌ، رِجْزٌ، رِجْسٌ).

(السَكَرُ: س: سَفَهُ نَفْسٍ، سَتْرُ عَقْلٍ، سِفسافُ أمْرٍ، سُوسُ نَخْرٍ، ك: كَذِبُ أمانيٍّ، كَلالُ جِسْمٍ، كَلاحَةُ وَجْهٍ، ر: رَوغانُ، رداءةٌ، رذيلةٌ)، (الغَوْلُ: غَفْلَةُ النَّفْسِ، غوايةُ المَعصيةِ، غِشُّ الأُمَّةِ، غَرَرُ الأسرةِ، غَبنُ العَقلِ، غَرامةُ المالِ، غَيظُ الإنسانِ، غِلَظُ القلبِ، غَضَبُ الرَّبِّ، و: وَحَرٌ– حِقْدُ – الصَّدْرِ، وَهَنُ الجسمِ، وغَدُ الشيطانِ.

لا يخفَى على إنسانٍ عاقلٍ أنَّ "الخَمرَ أصلُ الرذائلِ"؛ وقد قالَ الصادقُ المَصدوقُ مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: الخمرُ أُمُّ الخبائثِ فمَن شربها لَمْ تُقبَلْ منه صلاتُه أربعينَ يوماً فإنْ مات وهي في بطنِه مات ميتةً جاهليَّةً (المعجم في الأوسط)؛

إنَّ "الإفتارَ" طريقٌ إلى المخدِّراتِ المُهلكاتِ، و"المُفتِّرُ" – شرعاً – هو الذي إذا شُرِبَ حمَّى الجسدَ وصارَ فيه فتورٌ؛ وهوَ ضَعفٌ وانكسارٌ (عون المعبود ٣/ ٢٧٠) وقال الخطَّابيُّ رحِمَهُ اللهُ تعالى: "كُلُّ شرابٍ يُورِثُ الفُتورَ والخَدَرَ في الأطرافِ، وهو مُقدِّمةُ السُّكْرِ، نُهِيَ عن شُربِه لئلاّ يكونَ ذَريعةً إلى السُّكْرِ" (مُختصَر سُنن أبي داوود للحافظِ المُنذريِّ ص ٢٦٩) وهو النَّشوةُ عندَ أبي حنيفةَ النعمان رحمَهُ اللهُ تعالى؛ فـ "كلُّ ما خامَرَ العقلَ فهُوَ خبيثٌ مُحرَّمٌ في شريعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ويُعاقَبُ مُرتكِبُه في الدُّنيا، ويُعتبَرُ جريمةً يُعاقبُ عليها القانونُ الإنسانيُّ؛ فالتخديرُ مُهلكٌ للمالِ وإنْ أخذَ منهُ القدْرَ القليلَ إلى جانبِ أنَّه لا فائدةَ منهُ؛ بلْ (خَطرُه عظيمٌ، كثيرُ المضارِّ) قالَ اللهُ تعالى: "ولا تُلْقُوا بأيْديكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ" (البقرة: ١٩٥).

وإنَّ ما يُفتِّرُ البدنَ حَرَّمَهُ الشارعُ الحكيمُ، وقد جاءَ تحريمُ الخَمرِ في الآياتِ القرآنيةِ بشكلٍ تدريجيٍّ قالَ تعالى: "يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأنْصَابُ والأزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة: ٩٠).

وإنَّ كلمةَ "اجْتَنِبُوهُ" أوسَعُ وأشَدُّ وأبلغُ من التحريمِ الذاتيِّ للشيءِ؛ لأنّها تشمَلُ تحريمَ (الشاربِ والشاري والبائعِ والصانعِ وكل مَنْ يُشَجِّعُ على ذلكَ ويُروِّجُ لذلكَ). وقالَ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "كُلُّ مُسكِرٍ حَرامٌ، وكُلُّ مُفترٍ حَرامٌ" (رواه أحمدُ وأبو داوودَ بسندٍ صحيحٍ، فيض القدير: ١٣٨/ ج ٦/ ٩٥٠٧). وقال اللهُ تعالى: وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ (الأعراف: ١٥٧) – وقد أصدر الإمامُ مُحمَّد حسنَين مَخلوف رحمَه اللهُ تعالى فتوى فقال في حُكْمِ المُفترات: "وَحُكْمُ الحَشيشةِ قليلِها وكثيرِها كَحُكْمِ قليلِ الخَمرِ وكثيرِه؛ فمَن تناولَها وَجَبَ إقامةُ الحدِّ عليه إذا كان مُسلماً يَعتقدُ حُرمَتَها؛ فإنْ اعتقدَ بِحِلِّها حُكِمَ بِرِدَّتِه، وتُطبَّقُ أحكامُ المُرتدِّ عليه والحَدُّ هو حَدُّ الخَمرِ وقدرُه ثمانُونَ جَلدةً".

وينبغي تعاونُ المجتمعِ (أفراداً وأسراً وأمَّةً) للحَيلولَةِ دون تفشِّي هذا الظاهرةِ (المُحرَّمةُ شَرعاً، والمَذمومة إنسانيَّاً، والمُجرَّمةُ قانونيَّاً)؛ ليبقى الإنسانُ آمناً على (دينه، ونفْسه، عَقله، وعِرضه، ومَاله، وبلَده).

ولله درُّ الناظمِ الناثرِ الكاتبِ الشاعرِ عبد الرحمنِ الملَّاح الحنفيِّ المصريِّ في تخميسه للاميَّةِ ابنِ الورديِّ القائلِ:

أَبْعِدِ الدُّنيا وَ(حِلْ) عَن قُرْبِهَا: مِلْ ... كَـمْ هُمُـــــومٍ حُصِّلَـتْ فـي حُـبِّهَـا

واهْجُرِ الرَّاحَ وَ(حِلْ) عنْ شُـــرْبِها ... واتْرُكِ (الغَادَةَ) لا تَحْفَلْ بِهَا: المرأةَ الناعِمةَ

تَمْسِ في عِزٍّ وَتُرْفَعْ وَ(تَجُلْ): يعظُمُ قَدْرُكَ

وعن أبي مالكٍ الأشعريِّ رضيَ اللّٰهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّٰهِ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ: "لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِن أُمَّتِي الخَمْرَ يُسَمُّونَها بِغَيرِ اسْمِها، يُعْزَفُ على رُؤوسِهِمْ بِالمَعازِفِ والمُغَنِّيات، يَخْسِفُ اللّٰهُ بِهِمُ الأرضَ، ويَجْعَلُ مِنْهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ" أخرجَهُ ابنُ ماجَهْ في سُنَنِه وإسنادُه صحيحٌ.

وقَد حرَّمَ الإسلامُ الحنيفُ التداويَ بالخَمْرِ؛ لقولِه صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ: إنَّ اللّٰهَ لم يجعَلْ شفاءَكم في حرامٍ (صحيح ابن حبان)، وقال عليهِ الصلاةُ والسلامُ: إنَّها ليست بدواءٍ ولكنَّها داءٌ (صحيح ابن حبان). ولا يجوزُ للمسلمِ شُرْبُ الخَمرِ إلاّ في حالِ الاضْطِرارِ؛ كـ(العَطشِ الشديدِ، وَحالِ الإكراهِ المُلْجِأ؛ لقولِه تعالى: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (الأنعام: ١٤٥)، وعَدمِ وُجودِ وسيلةٍ أُخْرَى تَمنعُه من شُربِ الحرامِ، وألاّ يأخُذَ إلاّ القدرَ القليلَ لِمَنْعِ الضُّرِّ، وأن يكونَ القرارُ في حالِ المَرضِ بذلك صادراً عن طبيبٍ مُسلمٍ ثِقَةٍ مُؤتَمَنٍ على عِلْمِه وطِبِّه ودِينِه ومدى أهمِّيةِ الفتوى (دراية، ورواية، شخصاً، وحالاً، ومآلاً، زماناً، ومكاناً).

قال صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ: لعنَ اللّٰهُ الخمرَ وشاربَها وساقيَها وبائعَها ومُبتاعَها وعاصِرَها ومعتصِرَها وحاملَها والمحمولةَ إليْهِ وآكلَ ثمنِها (المهذب).

وقال عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ: مَن شربَ الخمرَ شَربةً لم تُقبَلْ تَوبتُهُ أربعينَ صباحًا فإن تابَ تابَ اللّٰهُ علَيهِ فإن عادَ لم تُقبَلْ تَوبتُهُ أربعينَ صباحًا فلا أدري في الثَّالثةِ أو في الرَّابعةِ فإن عادَ كان حقًّا علَى اللّٰهِ أن يُسقيَهُ من رَدغةِ الخبالِ يومَ القيامةِ (الصحيح المسند)، والخَبالُ الهَلاكُ قالَ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ: لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً (التوبة: ٤٧)، والخَبَلُ فسادُ العَقلِ والأعضاءِ؛ وكأنَّ شاربَ الخَمْرِ صارَ في المجتمَعِ كالعُضوِ المُصابِ بالسَّرطانِ أو المُصابِ بالتخثُّرِ التَّاجيِّ وهو تجلُّطُ الدَّمِ في الشرايينِ التاجيَّةِ، أو التشمُّعِ الكبديِّ بتعاطيهِ المحرَّمَ فتعطَّلَتْ عندَه مراكزُ الشعورِ ومَنافذُ التفكيرِ والإدراكِ فلا يأتي بعَملٍ مُفيدٍ؛ لذا لا يَنفعُ مَعهُ إلاّ العلاجُ الكيماويُّ أو الكَيُّ، وكما قيلَ: "آخرُ الدَّواءِ الكيُّ".

وكَمْ من شاربٍ أصابتْه الخَصاصَةُ والفقرُ والحاجةُ وسُوءُ الحالِ؛ فشتَّانَ شتَّانَ بينَ إنسانٍ عاقلٍ عملُه كشريانِ الخيرِ وبينَ غافلٍ حالُه كَشريانِ الشَّرِّ.

أمَّا جائزةُ مَن أطاعَ اللّٰهَ تعالى ولمْ يَشْرَبِ الخَمرَ في الدُّنيا فإنَّ اللّٰهَ عزَّ وجلَّ يُكْرِمُهُ يومَ القيامةِ؛ فقَد رَوى عَمْرُو بنُ شُعيبٍ عن أبيهِ عن جَدِّه عن النَّبيِّ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ أنّه قالَ: ". . وَيُؤتى بالرَّجُلِ الصَّالحِ قَدْ حَمَلَهُ–أي حَمَلَ القرآنَ الكريمَ – حَفِظَ أمْرَهُ فَيُمَثَّلُ لهُ خَصْمَاً دُونَهُ – أمامَهُ – أيّ ليمنَعَ عنْهُ فيقولُ: يا ربِّ حَمَّلْتَهُ إيَّايَ فَخَيْرُ حَامِلٍ؛ حَفِظَ حُدُودي، وعَمِلَ فَرائضي واجتنَبَ مَعصيَتي، واتَّبَعَ طاعَتي فمَا يَزالُ يَقْذِفُ لَهُ بالحُجَجِ حتَّى يُقالَ لَهُ شَأنُكَ بِهِ فَيَأخُذَهُ بيَدِه فمَا يُرْسِلُهُ حتّى يُلْبِسَهُ حُلَّةَ الإسْتَبْرَقِ، ويَعقدُ عَليهِ تاجَ المَلِكِ، ويَسْقِيهِ كأسَ الخَمْرِ" (الجواهرُ اللؤلؤيةُ في شرحِ الأربعينَ النوويةِ للإمامِ محمّدِ بنِ عبدِ اللّٰهِ الجردانيِّ الدمياطيِّ الشافعيِّ/ ص ١٨٢) قالَ اللّٰهُ تعالى: لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ الصافات، وقال تعالى في وصفِ جزاءِ أهلِ الجنةِ: طُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ

﴿ ١٧ ﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿ ١٨ ﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿ ١٩ ﴾ (الواقعة)، وقالَ جَلَّ جلالُه: " .. وأنْهارٌ مِنْ خَمْرَةٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ .. " (مُحمَّد : ١٥) .

إنَّ أشربة (الخمرَ، والمُسكِرَ، والمُفتِرِ) تفتكُ بـ (الفردِ، والأُسرَةِ، والأمَّةِ، والبشرية) جَمعاءَ؛ لِمَ لا وَقَد قرَنَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُدمِنَ الخَمْرِ بِعَابِدِ الوثنِ–الصنَمِ– فقالَ: إنَّ مدمنَ الخمرِ كعابدِ الأوثانِ (حلية الأولياء)، كيف لا وقد جعلَ المخمورُ (الخمرَ أو المُسكِرَ أو المُفترَ) وسيلَته وطريقتَه وغايتَه؛ إما (تلذذا بطَعمِها المُقزِّزِ اللاذعِ)، أو (تفاخُراً بشُرْبِها) كما يفعلُ أهلُ الجاهليَّاتِ القديمةِ منها والحديثة، أو (تَشبُّها بالفَجَرَةِ الكفَرةِ)، وكما قال أميرُ المُؤمنينَ أبو الحسنِ عليّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه : " الفُجورُ من شِيَمِ الكُفَّارِ، والكافرُ فاجرٌ جاهلٌ، والشَّهواتُ تَستَرِقُ الجَهُولَ، والشَّهواتُ سُمومٌ قاتلاتٌ" جاهلٌ نفسَه وفاجرٌ بسَفَهِه، أو (تهرُّباً من هُمومِ الحياةِ الدُّنيا – حسبَ وَهَمِه الزَّائفِ وزَعْمِه الباطلِ– فيكون حالُه كالمُستجيرِ من الحَرِّ بالنارِ .

إنَّ تعاطي (الخمرِ والمُسكرِ والمُفترِ) فيه ذهابُ العقلِ والصِّحَّة، وتنَكُّرٌ لِفطْرَةِ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها، وخَرقٌ لِعاداتِ المجتمَعِ الطاهرِ النظيفِ الذي يَسودُه (الطُّهرُ، والعفافُ، والصَّفاءُ، والنقاءُ) حيثُ لا رذيلةَ ولا فَحشاءَ (قولاً وفِعلاً وسُلوكاً، فرداً وأُسرةً وأمَّةً) وكَمْ أضاعَ شاربُ الخمرِ أموالَه، وهَتكَ عِرضَه، واستباحَ أعراضَ النساءِ والعَذارى، وأعرضَ عن فرائضِ خالقِه ومَولاهُ ورازقِه؛ فـ(سرقَ، واختلسَ، وخَدَعَ، وراوَغَ، وزاغَ)؛ فأزاغَ اللهُ عزَّ وجلَّ قلبُه وأفسدَ عقلَه وطاشَ لبَّه . يتبخْتَرُ في مشيَتِه مَزهُوّاً بنفسِه؛ ولكنَّه نَسيَ أو تناسَى أنّه قد سَفِهَ نفْسَه، خائرَ القوى فاقدِ التقوى، فاترَ الطَّرفِ، كالحِ الوجْهِ، مُتحيِّرَ العقلِ، مُظْلِمَ القلبِ، مُسترخِيَ البطنِ، سميناً ثقيلاً، مُترنِّحَ الجسمِ، أحمقَ مُضطَرِباً، خبيثَ النفسِ، يخبطُ خبطَ عشواءٍ يأتي ما يأتي بجهالةٍ – لو نالَ شهاداتٍ دُنيويَّةٍ مزيَّفةٍ واعتلَى كراسيَ التدريسِ والتربيةِ، وصارَ من رجالِ الأعمالِ؛ بل الإهمالِ، كسلانَ ويكأنَّه (دونجوان) مُرضيَ الشيطانِ، مُغضِبَ الرحمنِ جلَّ جلالُه . ولو أنَّه فكَّرَ في نفسِه، وفَهِمَ أمرَ ربِّه، وطبَّقَ سُنَّةَ نبيِّه مُحمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لكانَ (أهدى سبيلاً وأقومَ طريقاً) فاتَّخَذَ القرآنَ الكريمَ دُستورَ حياةٍ، وسُنَّةَ رسولِه المصطفى دليلاً؛ لكانَ من (العُقلاءِ والأتقياءِ السُّعداءِ)؛ فـ(في الحلالِ ما يُغنِي عن الحرامِ، وفي الطِّيِّبِ ما يُغنِي عن الخَبيثِ، وفي الماءِ العذْبِ الفُراتِ ما يُروي ظمأَ العطشانِ، وفي أشربةِ الفواكهِ الدواني ما يُنْعِشُ النفْسَ، ويُطيِّبُ النفَسَ، ويُثلِجُ القلبَ، ويَشرَحُ الصَّدرَ، ويُغذِّي البدنَ، ويَزيدُ الفَطِنَ ذَكاءً وفِطنةً) .

أمّا على صعيدِ الأسرةِ؛ فكَمْ طَلَّقَتْ الزوجةُ زوجَها، أو طَلَبَتِ الطلاقَ عند المحامي أو القاضي؛ لأنّ زَوجَها يَسكَرُ ويخمرُ، ويشربُ المفترَ ويفتري، أو طلبتِ الخُلْعَ لخلاعَةِ وخِداعِ بَعلِها؛ – بالعَينِ لا بالْغَينِ– لتغوُّلِه وسُوءِ تَبعُّلِه لزوجتِه وتَفلُّتِه، وكما قيلَ: (الخمرُ بريدُ الخَنا – الفُحْشِ– قولاً وعملاً وسُلوكاً)؛ في حين أنَّه يهدرُ الأموالَ، ويُدمِّرُ الطاقاتِ (الروحيةِ، والعقليةِ، والجسميةِ) بأشربةٍ يزْعُمُ (المخَدُوعونَ والمُخادِعونَ) أنها أشربةٌ (رُوحيَّةٌ؛ بل خَوائيَّةٌ) فيها ذِلَّةُ الشاربِ لا لذَّةَ الشاربِ، وفيها أنّ الشرابَ المسكرِ يُصيبُ مُتعاطيه بِداءِ (الخَشَمِ) فينتنَ ريحَ خَيشومِه،

وتُخالطَ دماغَه فتُسكرَه، وصارَ الأولادُ (ذكوراً وإناثاً، أطفالاً وفتياناً) ضحيَّةَ إجرامِ أبيهم السفيهِ بتعاطيه المشروباتِ الغَوليَّةِ الكحوليةِ، وصارتْ أميرةُ البيتِ أمُّ أولاده (كسيرةَ القلبِ، جريحةَ الفؤادِ، مكروبةَ الحالِ، مَشغولةَ البالِ) على مستقبلِ أبنائها فلذاتِ كَبدها الحرّ، وثمارِ قلبها الحنون؛ فتفكَّكتِ الأُسرةُ، وتشتَّتْ عُرى المحبَّةِ بينَ الأُسَرِ فيكونُ بذلكَ قد ضيَّعَ طاقاتِ الشبابِ، وحَرَمَ حنانَ البناتِ في سبيلِ نهضةِ أمَّةٍ تسعَى لنيلِ رضا اللهِ وإسعادِ عبادِ اللهِ.

قال تعالى: خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (الشورى: ٤٥)، فأخْزاهُ اللهُ وأهانَه على مَرآى الأشهادِ؛ فصارَ صاغراً ذليلاً بَعدَ أنْ كانَ مُتشدِّقاً بَطِراً مُتنطِّعاً مُتكبِّراً.

أمَّا على صعيدِ (الأُمَّة) فحدِّثْ ولا حَرَجَ؛ فكَمْ ضيَّعَ مَخمورٌ عقلَه فَصدَّرَ فِكراً شائباً واتَّخَذَ رأياً خاطئاً فجَرَّ بذلكَ الجَورِ والعَسَفِ فتَعَسَّفَ في سُلوكِه؛ فكانَ مُجْرِماً غَشوماً وقد جاءَ في المثلِ العربيِّ: "ليسَ أميرُ القومِ بالخَبِّ– الخِبِّ– الخَدِعِ". وقد وردَ في الحديثِ الشريفِ: لا يَدْخُلُ الجنةَ خبٌّ، ولا بخيلٌ، ولا مَنَّانٌ (سنن الترمذي)؛ ولِمَ لا وقد قالَ تعالى: "قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ سورة الكهف.

وإنَّ (المخمورَ، أو السَّكرانَ، أو شاربَ المُفترات) – أيّا كانتْ (شرقيَّةً، أم غربيَّةً)، ومهما اختلفَتْ مُسمَّياتُها حقيقتُها واحدةٌ؛ فهيَ (مُفسدةٌ مُفتِّرةٌ مُسكِرةٌ مُحرّمةٌ) فيها من (المهانةِ، والمذلَّةِ، والمجانَةِ) ما يكفي لجعلِ مُتعاطيها مَطبوعاً على قلبه لا يفهمُ شيئاً ولا يُبصرُ قال عزَّ وجلَّ: خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ سورة البقرة.

وهذه الأشربةُ المُضرَّةُ تجعلُ الإنسانَ ختَّاراً كفُوراً: أيَّ غدَّاراً جاحداً نعَمَ اللهِ ومضيِّعاً عبادَ اللهِ. والخَتْرُ: الغَدْرُ، وخَتَرَ فلانٌ فُلاناً غَدَرَ به أقبحَ الغَدْرِ وفي الحديثِ الشريفِ:ما نقض قومٌ العهدَ إلَّا كان القتلُ بينهم ولا ظهرت الفاحشةُ في قومٍ إلَّا سلَّط اللهُ عليهم الموتَ ولا منع قومٌ الزَّكاةَ إلَّا حُبس عنهم القطْرُ (الترغيب والترهيب). وقال تعالى: وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ (لقمان)، وأيُّ خَتْرٍ وَغَدْرٍ بالطيِّباتِ من (تمرٍ، وعِنَبٍ، وقمحٍ، وشعيرٍ، وزبيبٍ...) تمدُّ الإنسانَ بطاقةٍ طيِّبةٍ حلالٍ، وتجعلُه بعَونِ اللهِ تعالى قويّاً فتيّاً، وتحويلها إلى (مُسكراتٍ مُفترات مُهلكاتٍ) بحُجَجٍ واهيةٍ أنّها تدرُّ للناسِ منافعَ دنيويَّةً؛ بل دنيئةً، تفسدُ عُقولهُم وتُضْعفُ أجسامَهُم، وتشلُّ اقتصادَهُم، وتزيدُ كُروبَهُم، وتُكثرُ مشاكلَهُم، وتهتكُ حُرمتَهُم، وتُشتِّتُ أُسرَهُم، وتُدمِّرُ أمَّتَهُم، وتُغْضِبُ ربَّهُم وخالقَهُم سُبحانه وتعالى؛ فكَمْ من بلادٍ اختبَطَتْ فيها الأمورُ فوقعَتْ فيها الفواحشُ والمنكراتُ، وكثُرتْ فيها

الكوارثُ والغاراتُ قال جلَّ في عُلاه: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ٦٥ ﴾ (يس)، فهلْ مِن مُعتبرٍ (فرداً، وأسرةً، وأمَّةً) .

ولله درُّ العالِم الرَّبَّانيِّ القائِل:

ألاَ يا نَفْسُ وَيْحَكِ ساعديني ... بسَعيٍ مِنْكِ في ظُلَمِ الليالي

لعلَّكِ في القيامَة أن تَفُوزي ... بطيبِ العيشِ في تلكَ العَلالي

اللهم ألهِمْنا رُشْدَنا وكَفِّرْعنَّا سيِّئاتِنا وأصلِحَ بالَنا، وأعِذْنا من مُضلَّاتِ الفتنِ ما ظهَرَ منها وما بطنَ أللهُمَّ آمينَ.